حاجى بابا فى انكلترا

تأليف جيمز موير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الحادى والخمسون

أتباع السفير يعودون

استبقى السفير محبوباً لحراسة الشركية وأعاد سعيداً معنا إلى طهران . وقد ودعنا لوندرا وولينا وجوهنا شطر طهران ، وكان طريقنا فى العودة غير شائق مثل طريقنا فى المجىء ، وقد تبادلنا مع السفير الكلمات الطيبة التى تقال فى مثل هذا المقام، وصفح كل منا عن الآخر . وعهد بنا إلى ربان الباخرة فأصبحنا فى وصايته وأصبح واجبه أن يسلمنا إلى مندوب فارسى فى الآستانة سواء أكنا أحياء أم جثثاً هامدة

وكان هذا الربان رجلا ملفوح الوجه بالهواجر كأى رجل تركمانى محارب، ووجدناه غليظاً متجهماً وكان يقدم لنا كل يوم طعاماً من اللحم والطيور ، ولكنه لم يقدم لنا شيئاً من الأرز . ومن حسن الحظ أن المقدار الذى جئنا به من فارس لم ينقص كثيراً فأخذنا منه جانباً وتركنا للسفير سائره

وقبل سفر الباخرة رأينا عشرين أو ثلاثين رجلاً فى يد كل منهم ورقة وقلم من الرصاص ، وكلهم يكتبون وصف ما يشاهدونه . وقيل لنا إن هذه مهمتهم اليومية لأنهم مخبرون للصحف

وسأتجاوز عما رأيناه من المتاعب فى السفينة . ولكنى أقول: إن تلك المتاعب تربو على كل ما قاساه المسلمون من جميع الدنيا من يوم أن نشأ الاسلام إلى اليوم ، فمن عاصفة إلى زوبعة إلى إعصار ، حتى إذا ما استقرت الحال وسارت السفينة فى أمن واطمئنان عادت إلى ما كانت عليه فتتأرجح بنا بين جبال من الأمواج

وأخيراً جاءت الساعة السعيدة التى ظهرت لنا فيها قباب المساجد ومآذنها . وكان المنظر بديعاً فحمدنا الله وصلينا صلاة الشكر . وقد تجسم فى نفوسنا شعور الفرح فهممنا بالنزول إلى الشاطئ والخلاص من السجن والسجان . ولما قابلنا مندوب فارس ألقينا عليه ألف سؤال وسؤال عن فارس وعن أصدقائنا وأقاربنا فيها . وكانت شكوانا مرة من ربان السفينة . وقص عليه محمد بك كل شىء مما رآه مما يخالف الشرع الشريف فى بلاد الفرنجستان . ثم ذهبنا إلى بيت السفير الانكليزى فسلمنا إليه ما معنا من الرسائل المرسلة إليه . وقد وجدنا الانكليز فى الآستانة لا يستقبلوننا بمثل الحفاوة التى يستقبلنا بها الانكليز فى بلادهم ولا بمثل الدهشة التى كانوا يبدونها نحونا وسبب ذلك واضح وهو أننا كثيرو الشبه بالأتراك وقد ألفونا

ثم استأنفنا السير إلى بلادنا

الفصل الثانى والخمسون

حاجى بابا فى طهران

استأجرنا البغال وأعددنا معدات السفر، وفى مدى أيام قلائل كنا على مقربة من حدودنا وكانت قلوبنا تخفق سروراً، ولم يحدث فى الطريق ما يستحق

الذكر . وكنا نفكر في العادات التي اعتدناها بالغرب وفي عادات بلادنا القديمة فنجد السيئ والحسن في كليهما

وفي أثناء الطريق زرنا الباشا في أرضروم واتضح لنا أنه لم ينسنا ولم ينس السفير . وفي تبريز تمسحنا بأعتاب الحاكم وهو من أمراء الأسرة المالكة ، وقد سألنا أسئلة دلتنا على أنه عين من قبل كل الذي عيناه في أثناء الرحلة . ولا يفوتني أن أذكر أننا قابلنا قبيلة من الأكراد على أثر خروجنا من أرضروم فأصروا على أخذ أمتعتنا عنوة ولكن فرقة من جنود الباشا التركي كانت تتولى حراستنا فقاتلتهم وألجأتهم إلى الفرار

وأخيراً وصلنا إلى طهران فقابلنا أصدقاءنا الذين كانوا في انتظارنا على أحر من الجمر ، وقد عزمت على أن أسلك خطة من الترفع تتفق مع المكانة التي استفدتها ، ومع المعلومات التي تلقيتها في رحلتي الأخيرة

ذهبت تواً إلى بيت رئيس الوزارة فوجدته قد ذهب إلى بيت الشاه فتبعته إليه وسلمته ما معي من الخطابات ووقفت منتظراً أوامره . وقد تركني واقفاً أمامه عدة دقائق قبل أن يأذن لي بالجلوس . ووجدت كثيراً من أصحابي في انتظاري فحيوني وهنأوني وسألوني عن الحالة في بلاد الانكليز فقال أحدهم إن النساء هناك لا يخجلن . وقال آخر إنهم يعبدون الصليب . مما يدل على الجهل بأحوالهم كما أن الانكليز يجهلون أحوالنا

وفي هذه الأثناء أبلغ رئيس الوزارة الشاه بخبر قدومي فتوديت ودخلت باحترام وألقيت بين يدي جلالته خطبة قصيرة وحرصت بقدر الامكان على أن أجمع بين موقف الوزير الانكليزي أمام ملكه وبين موقف الوزير الفارسي أمام الشاه

قال لي الشاه متلطفاً رداً على خطبتي : «سررت بعودتك يا حاجي بابا »

فأحنيت رأسي على طريقة الوزراء الانكليز فقال : « مرحباً بك »

فأعدت إحناء رأسي

قال : «هل أتيت بهدايا من شاه الفرنجستان؟ »

فقلت : « نفسي فداك يا جلالة الشاه لقد أتيت بهدايا قدمتها لأمين القصر » ثم أخرجت من جيبي عشرين جنيهاً من النقود الانكليزية ووضعتها على عتبة العرش وقلت : « وهذا الذهب أضعه متفائلا على أعتاب عرشكم »

فابتسم الشاه وقال لرئيس الوزارة الذي كان واقفاً بالقرب منه : «إن حاجي بابا خادم مطيع وقد بيض وجهي في بلاد الفرنجستان »

قال رئيس الوزارة : « نعم نعم يا جلالة الشاه وحيث يوجد أتباع جلالتك نبيض وجوه الفارسيين » ثم قال لي الشاه : « صف لنا بلاد الفرنجستان » فقلت : « هي بلاد واسعة تختلف في كل أحوالها عن بلادنا »

قال : « وازن بينها وبين بلادنا » فقلت : « لا وجه للموازنة يا صاحب الجلالة فهي بالقياس إلى إيران مثلي مع ضعفي بالقياس إلى جلالتكم »

فالتفت الشاه إلى رئيس وزارته وقال : « لكل بلاد محاسنها ولكن لا توجد في الواقع بلاد مثل إيران» ثم استشهد ببيت من شعر حافظ الشيرازي في مدح فارس . فقال رئيس الوزارة : « أين شعر حافظ مما قلتموه جلالتكم من الشعر . وهل في العالم كله شاعر مثل مولانا فتاح علي شاه ؟ »

فابتسم الشاه وقال : « ليس فى الانصاف غضاضة فان الشيرازى شاعر معدوم النظير » ثم التفت إلىّ وقال : « هل فى بلاد الفرنجستان شعراء ؟ ! قلت : « نفسى فداك يا جلالة الشاه ليس عندهم أمثال السعدى والشيرازى ولكن عندهم شعراء على كل حال » فقال الشاه : « تعنى أنه ليس عندهم بلابل ؟ » فقلت : « نعم ليس عندهم بلابل يا صاحب الجلالة ولكن عندهم كلاباً. والحق أن إنشادهم بالقياس إلى إنشادنا كالعواء بالقياس إلى التغريد »

فسر الشاه من هذا القول وضحك وقال : « إذن فعندهم شعراء ، فماذا عندهم غير ذلك ؟ هل نساؤهم جميلات ؟ »

قلت : « نعم ياجلالة الشاه ، وأى جمال ! عندنا اليهوديات والروسيات والأرمنيات ومن كل جنس ودين وليس بين جوارى الشاه جارية انكليزية وفى الانكليزيات الجديرة بأن تكون فى خدمة جلالتك »

فقال الوزير : « ولماذا لم تأت بجارية منهن هدية للشاه ؟ »

قلت : « تلك غلطة منى فلو أمر الشاه سفيره بأن يعود بجارية انكليزية لقرت بها عيناه »

فقال الشاه : « لم تخطئ فى القول ياحاجى بابا » نحن نريد جارية انكليزية ليتم نظام حرمنا الشاهانى »

ثم التفت إلى رئيس الوزارة وقال : « وماذا تذكره لنسأل عنه حاجى بابا ؟ » . فقال رئيس الوزارة : « زجاجة التجسس يا مولاى ! »

قال الشاه : « أخبرنى يا حاجى بابا هل رأيت عندهم زجاجة التجسس ؟ »

فقلت : « نعم يا صاحب الجلالة . عندهم شىء غريب مستطيل اسطوانى الشكل وفى نهايته زجاجة مسحورة يستطيع الانسان بها أن يرى الجيش عن بعد عشرات الفراسخ دون أن يراه الجيش الآخر . وهى تظهر الشىء البعيد جداً كأنه على بعد أمتار قليلة . ولقد رأيت فى بلاد الفرنجستان أشياء معدومة النظير »

قال : « تكلم يا بنىّ . ولكن إياك أن تكذب بحضرة الشاه . وإذا كذبت فلن تجد رحمة فى نفسى »

قلت : « نفسى فداك يا صاحب الجلالة . لقد رأيت سفناً كأن الواحدة منها مدينة وهى تمشى فى الزوابع والأعاصير دون أن تتمايل »

قال الشاه : « لقد حذرتك من الكذب يا حاجى بابا »

فقلت : « نفسى فداك ما قلت إلا ما رأيت »

فتلطف الشاه وسألنى : « أى شراع يجر هذه السفينة ؟ وما طوله ؟ وما عرضه ؟ »

فقلت : « إنها تسير ببخار الفحم » ثم أخذت أشرح معلوماتى فى هذا الموضوع وهو ينظر إلىّ نظرة استغراب كأنى أقص عليه قصة من قصص السحرة . ثم أعاد سؤاله عن زجاجة التجسس . وسألنى عما رأيت غير ذلك . فقلت : « إن أغرب ما رأيته هو النور الذى ينبعث من منارة السفن فى أثناء الليل ، فانه يرى عن بعد لتهتدى به السفن ويتحرك ويدور ظاهراً بهيئة جسم عمودى ولا يتكلف إلا أقل النفقات ويؤدى أكبر النفع » . فدهش الشاه وأخذ يسألنى فشرحت له معلوماتى عن المنارات أيضاً وقال : « لقد كنت أعرف أن الانكليز يصنعون الأقمشة الجيدة ولكن لم يخطر ببالى أنهم يصنعون النور الفاتن » . ثم قال : إنهم من أشهر التجار ولا يبعد أن يكونوا قد صنعوا هذا

النور ليفتنوا به أتباعهم الفرسيس الذى يعبدون النار فى الهند

قلت : « هو ذلك يا جلالة الشاه » واقترحت على جلالته أن يأمر السفير بأن يرسل إليه صندوقاً من العجائب الانكليزية

فسألنى : « هل صحيح ما يقولونه عن شدة العواصف فى انكلترا ؟ »

فخطر لى خاطر بديع وقلت : « نعم يا جلالة الشاه إن العواصف هناك لا يدركها العقل ولقد هَبَّت عاصفة وأنا فى الطريق وكنت فاتحاً فمي فطوحت الرياح بثلاثة من أسنانى وألقتها فى جوفى »

ثم فتحت فمى وأريته مكان أسنان ثلاث مكسورة من ريحة جواد . وأكدت له أن العاصفة هى التى أسقطتها فاستغرب الشاه هول تلك العواصف وحمد الله على أنه لم يذهب إلى الفرنجستان وإلا لنزعت الريح لحيته من وجهه

ثم أمر لى الشاه بخلعة سنية وصرفنى من حضرته مسروراً . فذهبت وأنا أدعو له ونفسى طامحة إلى الحصول على لقب خان، فأذعت بين إخوانى أني سأحصل على هذا اللقب . وفى الحق أن كلمة « حاجى بابا خان » ذات نغمة موافقة وجَرْس بديع فلماذا لا يكون اسمى كذلك ؟

وقد تسامع الناس أنه أنعم علىّ بهذا اللقب ، وصار الشاه نفسه لا يقول لى «ميرزا حاجى بابا» بل يقول «حاجى باباخان» ولا أعرف هل كان ذلك مزاحاً من جلالته أم جداً . ولكنه على كل حال فأل حسن

بيد أن رئيس الوزارة كان يصم أذنيه عن أقوال الناس حول هذا اللقب وإضافته إلى اسمى ، وما ذلك إلا لأن السفير فيروز خان قريبه وهو يضن علىّ أن أنال مثل مرتبته وأنا مرؤوسه

وعشت مسروراً أنفق من المال الذى خبأته قبل سفرى عند قبر « زينب » ولم يحدث ما يسوءنى ولم ينقطع أملى فى الحصول على الرتبة . وكنت أقضى أوقاتى فى التحدث مع أصحابى عن العجائب التى رأيتها فى الفرنجستان وفى ترجمة بعض الكتب الانكليزية

وكنت كثيراً ما أتشرف بزيارة الشاه وأسمعه من كلماتى ما يقربنى من أملى فى الحصول على اللقب

والآن أيها القارئ الكريم أتشرف بأن أقبل قدميك وأطلب الحماية فى جيب قفطانك وأرجو ألاّ يقصر الله ظلالك

حاجى بابا خان

« تمت »

عبد اللطيف النشار

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى المصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدرلى - هابريه ﴾